الفصل الثالث

ونفسٍ وما سوّاها

١ ــ « ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاهـا • وقد خاب من دساها » (الشمس : ٧ ــ ١٠) •

ان الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه • ونعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال •• فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه الى الخير والى الشر سواء • وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن الكريم بالالهام تارة : **« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها »** ، ويعبر عنها بالهداية تارة : **« فهديناه النجدين »** (البلد : ١٠) •• فهى كامنة فى تصميمه فى صورة استعداد •• والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية انما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذهـا ، ولكنها لا تخلقها خلقا •• لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة الهـاما •

وهناك الى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الانسـان ، هى التى تناط بها التبعة • فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسـه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر ، فقد أفلح • ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : **« قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها »** ••

هنالك اذن تبعة مترتبة على منح الانسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه •• توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى حقل الشر سواء • فهى حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب ••

ورحمة من الله بالانسان لم يدعه لاستعداد فطرته الالهامى ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف .. فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له موجبات الايمان ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشى الهوى فيبصر الحق فى صورته الصحيحة .. وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة ، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وادراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه ..

وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالانسان ، وكل ما يتم فى دائرتها فهو محقق لمشيئة الخالق وما قدره للانسان(١) .

* * *

٢ — « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار : ٦ — ٨) .

ان هذا الخطاب ينادى فى الانسان أكرم ما فى كيانه ، وهو « انسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع الى أكرم مكان ، وتجلى فيها اكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .. ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل : « **ما غرك بربك الكريم** » ؟ يا أيها الانسان الذى تكرم عليك ربك راعيك ومربيك ، بانسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة .. يا أيها الانسان ما الذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ؟ وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من فضله وكرمه وبره ، ومن هذا الاغداق انسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى وما لا ينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئا من هذا الكرم الالهى المغدق على الانسان المتمثل فى انسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية .. فيشير فى هذا التفصيل الى خلقه وتسويته وتعديله ، وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الانسان الذى لا يشكر ولا يقدر .

---

(١) سيد قطب ، فى **ظلال القرآن** . جـ ٦ ، ص ٣٩١٧ — ٣٩١٨ .

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم · الذى خلقك فسواك فعدلك » ؟ ·· ان خلق الانسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ، الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلا ورعاية منه ·

وان الانسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وان عجائب الابداع فى خلقه لأضخم من ادراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله ·· وان الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء ·

هذه الأجهزة العامة لتكوين الانسان الجسدى ·· الجهاز العظمى ، والجهاز العضلى ، والجهاز الهضمى ، والدورة الدموية ، والجهاز التنفسى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز البولى ، والجهاز العصبى ، والأجهزة الحسية ·· كل منها عجيبة لا تقاس اليها كل العجائب الصناعية التى يقف الانسان مدهوشا أمامها ، وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس !

وكل جهاز من أجهزة الانسان يقال فيه الشىء الكثير · ولكن هذه الأجهزة — على اعجازها الواضح — قد يشاركه فيها الحيوان فى صورة من الصور · انما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التى هى موضع الامتنان فى هذه السورة ، بصفة خاصة : **« الذى خلقك فسواك فعدلك »** بعد ندائه : **« يا أيها الانسان »** ·· هذا الادراك العقلى الخاص الذى لا ندرى كنهه ، اذ أن العقل هو أداتنا لادراك ما ندرك ، والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك !

هذه المدركات ·· نفرض أنها كلها تصل الى المخ عن طريق الجهاز العصبى الدقيق ، ولكن أين يختزنها ؟ ! انه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الانسان خلال سنوات عمره الى ملايين الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعانى والمشاعر والتأثرات ، لكى يذكرها بعد ذلك ، كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين ·· ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة ، والمعانى المفردة ، والأحداث المفردة ، والصور

المفردة ، ليجعل منها ثقافة مجمعة ، ثم ليرتقى من المعلومات الى العلم ؟ ومن المدركات الى الادراك ؟ ومن التجارب والخبرات الى المعرفة ؟

هذه هى احدى خصائص الانسان المميزة .. وهى مع هذا ليست أكبر خصائصه ، وليست أعلى مميزاته .. فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله . هنالك الروح الانسانى الخاص ، الذى يصل هذا الكائن بجمال الوجود ، وجمال خالق الوجود ، ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذى ليس له حدود ، بعد الاتصال بومضات الجمال فى هذا الوجود ..

هذا الروح هو هبة الله الكبرى للانسان ، وهو الذى به صار انسانا . وهو الذى يخاطبه باسمه : « **يا أيها الانسان** .. » .. ويعاتبه ذلك العتاب المخجل : « **ما غرك بربك الكريم** » ؟ .. هذا العتاب المباشر من الله سبحانه للانسان ، حيث يناديه — جل جلاله — فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلال الله ، ولا متأدب فى جنابه .. ثم يواجهه الخالق بالتذكير بالنعمة الكبرى ، ثم التقصير وسوء الأدب والغرور !

انه عتاب مذيب .. حين يتصور « الانسان » حقيقة مصدره ، وحقيقة مخبره ، وحقيقة الموقف الذى يقفه بين يدى ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ، ويعاتبه ذلك العتاب :

« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** »(١) .

* * *

٣ — « **سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى** » (الأعلى : ١ — ٣) .

ان هذا الافتتاح ، بهذا المطلع الرخى المديد ، ليطلق فى الجو ابتداء أصداء التسبيح ، الى جانب معنى التسبيح . وان هذه الصفات التى تلى الأمر بالتسبيح لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ، ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع « **الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى** » .

---

(١) المرجع السابق . ج ٦ ، ص ٣٨٤٧ — ٣٨٥٠ .

فاذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه احدى نعمه عليهم وأفضاله • انه اذن الاتصال به — سبحانه — فى صورة مقربة الى مدارك البشر المحدودة • صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته •• فى صفاته •• فى الحدود التى يملكون أن يتطلعوا اليها • وكل اذن للعباد بالاتصال بالله فى أية صورة من صور الاتصال ، هى مكرمة له وفضل على العباد •

« الذى خلق فسوى • والذى قدر فهدى » ••

الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ غاية الكمال الذى يناسبه •• والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه الى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه اليه أيضا ••

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شىء فى هذا الوجود ، يشهد بها كل شىء فى رحاب الوجود من الكبير الى الصغير ، ومن الجليل الى الحقير •• كل شىء مسوى فى صنعته ، كامل فى خلقته ، معد لأداء وظيفته ، مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق •• وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق ، ميسرة لكى تؤدى فى تجمعها دورها الجماعى ، مثلما هى ميسرة فرادى لكى تؤدى دورها الفردى ••

فالذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وألكتروناتها ، شأنها شأن المجموعة الشمسية فى تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها ، وهى تعرف طريقها وتؤدى مثلها وظيفتها •• والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة ••

هذه الحقيقة يدركها القلب البشرى جملة حين يتلقى ايقاعات هذا الوجود ، وحين يتدبر الأشياء فى رحابه بحس مفتوح • وهذا الادراك الالهامى لا يستعصى على أى انسان فى أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبى ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقى ايقاعات الوجود(١) •

* * *

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٨٨٣ ـ ٣٨٨٤ .

٤ ــ « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » ٠
(الانشقاق : ٦)

يا أيها الانسان ٠٠ الذى خلقه ربه باحسـان ، والذى ميزه بهذه « الانسانية » التى تفرده فى هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء ٠ وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقى قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع الى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

يا أيها الانسان ٠٠ انك كادح حتى فى متاعك ٠٠ فأنت لا تبلغه فى هذه الأرض الا بجهد وكد ٠ ان لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر ٠٠ الواجد والمحروم سواء ، انما يختلف نوع الكدح ولون العناء ٠ وحقيقة الكدح هى المستقرة فى حياة الانسان ٠٠ ثم النهاية فى آخر المطاف الى الله سواء ٠

يا أيها الانسان ٠٠ انك لا تجد الراحة فى الأرض أبدا ٠ انما الراحة هناك ، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام ٠٠ التعب واحد فى الأرض والكدح واحد ــ وان اختلف لونه وطعمه ــ أما العاقبة فمختلفة عندما تصل الى ربك ٠٠ فواحد الى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد الى نعيم يمسح على آلام الأرض كأن لم يكن كدح ولا كد ٠٠

يا أيها الانسان ٠٠ الذى امتاز بخصائص « الانسان » ٠٠ ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذى خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه(١) ٠٠

* * *

٥ ــ « ان كل نفس لمـا عليها حافظ » (الطارق : ٤) ٠

ما من نفس الا عليها حافظ ، يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله ٠ ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار ، وهى التى يناط بها العمل والجزاء ٠٠ ليست هناك فوضى اذن ! والناس ليسوا مطلقين فى الأرض هكذا بلا حارس ، ولا مهملين

---

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٨٦٦ ٠

فى شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب .. انما هو الاحصاء الدقيق المباشر ، والحساب المبنى على هذا الاحصاء الدقيق المباشر .

ويلقى النص ايحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا فى خلوة — وان خلت — فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذى يشق كل غطاء وينفذ الى كل مستور ، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليـــل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة فى الأنفس وفى الآفاق(١) .

* * *

٦ — « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (سورة ق : ١٦ — ٢٢) .

ان ابتداء الآية : « **ولقد خلقنا الانسان** » يشـــير الى المقتضى الضمنى للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها ، وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشىء مادتها ولم يزد عن تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشىء الموجد الخالق ؟ ان الانسان خارج من يد الله أصلا ، فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله .

« **ونعلم ما توسوس به نفسه** » .. وهكذا يجد الانسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله — سبحانه — تمهيدا ليوم الحساب ..

« **ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** » .. وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة

---

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٨٧٨ .

وهدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها ، بل ما جرؤ على هاجسة فى الضمير لا تنال القبول • وانها وحدها لكافية ليعيش بها الانسان فى حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة •

ولكن القرآن الكريم يستطرد فى احكام الرقابة •• فاذا الانسان يعيش ويتحرك ويأكل ويشرب وينام ويتحدث ، ويقطع الرحلة كلهـا بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها : **« اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد • ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »** ••

وحسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون فى سجل حسابنا ، بين يدى الله الذى لا يضيع عنده شىء ••

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا ••

وعن الامام أحمـد أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : « ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه الى يوم يلقاه • وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه الى يوم يلقاه » (رواه أحمد والترمذى والنسائى) •

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الانسان صفحة الاحتضار : **« وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد »** ••

فالموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره ، ولكن أنى له ذلك ، والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطىء الخطى ، ولا يخلف الميعاد • وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال • وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسـلم ـــ لمـا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله • ان للموت لسكرات » •• يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق الى لقاء ربه •

ومن سكرة الموت ، الى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

« ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد • وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد • لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد • وقال قرينه هذا ما لدى عتيد • ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد • مناع للخير معتد مريب • الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد • قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد • قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد • ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » (سورة ق : ٢٣ — ٢٩) •

وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » ؟ قالوا : يا رسول الله •• كيف نقول ؟ •• قال صلى الله عليه وسلم : « قولوا •• حسبنا الله ونعم الوكيل » •• فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل •• (رواه الترمذى) •

جاءت كل نفس •• فالنفس هنا هى التى تحاسب وهى التى تتلقى الجزاء ، ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها •• هذا مشهد أشبه شىء بالسوق للمحاكمة ، ولكن بين يدى الخالق الجبار •• وفى هذا الموقف العصيب يقال له : « **لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » •• هذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها • الآن فانظر ، فبصرك اليوم حديد(١) !

* * *

٧ — « وأن ليس للانسان الا ما سعى • وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى • وأن الى ربك المنتهى • وأنه هو أضحك وأبكى » (النجم : ٣٩ — ٤٣)

ما يحسب للانسان الا كسبه وسعيه وعمله ، ولا يزاد عليه شىء من عمل غيره ، ولا ينقص منه شىء لينالله غيره • وهذه الحياة الدنيا

---

(١) المرجع السابق • جـ ٦ ، ص ٣٣٦٢ — ٣٣٦٤ •

هى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى ، فاذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمـــل ، الا ما نص عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به »(١) .

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ..

فلن يضيع شىء من السعى والعمـــل والكسب ، ولن يغيب شىء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافيا كاملا لا نقص فيه ولا ظلم .. وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، الى جانب عدالة الجزاء .. فتتحقق للانسان قيمته الانسانية القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسئولا مؤتمنا على نفسه ، كريما تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل ، وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء .

« وأن الى ربك المنتهى » ..

فلا طريق الا الطريق الذى ينتهى اليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مأوى الا فى داره : فى نعيم أو جحيم .. ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها فى تكييف مشاعر الانسان وتصوره .. فحين يحس أن المنتهى الى الله — منتهى كل شىء وكل أمر وكل أحد — فانه يستشعر من أول الطريق نهايته التى لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ، أو يحاول فى هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

وبعدما يصل بالقلب البشرى الى نهاية المطاف يكر راجعا به الى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله ، فى كل مرحلة ، وفى كل حال .

« وأنه هو أضحك وأبكى » ..

وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة ، ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة .. أضحك وأبكى .. فأودع هذا الانسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشرى لا يدرى أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان فى هذا الجهاز المركب المعقد ، الذى لا يقف

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه — باسناده — عن أبى هريرة .

تركيبه وتعقيده النفسى عن تركيبه وتعقيده العضوى . والذى تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه ، وتتشابكان وتتفاعلان فى احداث الضحك واحداث البكاء .

وأضحك وأبكى .. فأنشأ للانسان دواعى الضحك ودواعى البكاء . وجعله — وفق أسرار معقدة فيه — يضحك لهذا ويبكى لذاك . وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم ، ويبكى اليوم مما أضحكه بالأمس .. فى غير جنون أو ذهول انما فى الحالات النفسية المتقلبة ، والموازين والدواعى والدوافع والاعتبارات التى لا تثبت فى شعوره على حال !

وأضحك وأبكى .. فجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين ، كل حسب المؤثرات الواقعة عليه .. وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق ، لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك ..

وأضحك وأبكى .. من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره ، فاذا هو باك ، يتمنى ان لم يكن فعل وأن لم يكن يضحك . وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة حيث لا ينفع البكاء ! ..

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال هذا النص القصير ، وتتراءى للحس والشعور ، وتظل حشود منها تبرز من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ، وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء فى النفوس .. وهذه احدى صور الاعجاز فى القرآن (١) .

* * *

٨ — « ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد » (العاديات : ٦ — ٨) .

ان الانسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده فى مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود : **« وانه على ذلك لشهيد »** .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال ! ..

---

(١) سيد قطب ، فى **ظلال القرآن** . ج ٦ ، ص ٣٤١٤ — ٣٤١٦ .

« **وانه لحب الخير لشديد** » .. فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا دنيويا ..

هذه فطرته .. وهذا طبعه ، ما لم يخالط الايمان قلبه .. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل جحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته ايثارا ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التى تستحق الحرص والتنافس والكفاح والكد ، وهى قيم أغلى من السلطة والمتاع الحيوانى بأعراض الحياة الدنيا(١) .

* * *

(١) المرجع السابق . جـ ٦ ، ص ٣٩٥٨ .

مفاهيم نفسية

بعد ذكر الآيات القرآنية التى تعرضت للنفس البشرية فى سوائها وانحرافها ، وخيرها وشرها ، وشرحها ..

يبدو من المفيد أن نناقش أو نبرز المفاهيم النفسية التى وردت، سواء فى نص الآيات أو فى تفسيرها .

وتتلخص هذه المفاهيم النفسية فى الآتى :

١ — الاستعدادات .

٢ — السلوك الفطرى والسلوك المكتسب .

٣ — التفكير والادراك والتذكر .

٤ — الأنا الأعلى .

٥ — التوجيه والاختيار .

٦ — الثواب والعقاب .

٧ — الانسان المركب ، والانسان المحقق لذاته .

٨ — الفروق الفردية .

وفيما يلى مناقشة أو شرح مختصر لكل من هذه المفاهيم :

أولا — الاستعداد :

يقصد به امكانية الوصول الى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب ، سواء أكان هذا التدريب مقصودا أم غير مقصود . وهذا لا يعنى بساطة الاستعداد فقد يكون معقدا ، أى يرتبط بعوامل مختلفة . ويمكن تعريف الاستعداد بأنه السرعة المتوقعة للتعلم فى ناحية من النواحى نتيجة وجود قدرات خاصة عند الشخص ترتبط بالموضوع الذى يتعلمه . ومن أمثلة الاستعدادات : الاستعداد الميكانيكى ، والاستعداد الفنى ، والاستعداد القيادى ، والاستعداد الاجتماعى ، وما أشبه ..

واذا ما تناولنا الاستعداد بشىء من التفصيل ، نجد أنه تكوين أو تركيب يشير الى مجموعة الخصائص التى تميز سلوك الفرد فى مواقف

متشابهة ، بالاشارة الى قدرته على مواجهة بعض المواقف المعينة أو حل بعض المشكلات التى تواجهه مستقبلا •• فاذا قلنا ان لدى الفرد استعدادا ميكانيكيا ، فان هذا يعنى أن عنده القدرة على اكتساب أساليب السلوك المختلفة التى يستلزمها النجاح فى انجاز الأعمال التى يطلق عليها « أعمال ميكانيكية » •• ويرى بعض علماء النفس أن الاستعداد ينبغى أن يتصف بأربع صفات اذا أردنا له تحديدا علميا دقيقا ، وهذه الصفات هى :

١ — أن يكون خاصا بلون معين من ألوان النشاط أو السلوك •

٢ — أن يكون أحادى التركيب أو التكوين •

٣ — أن يكون ثابتا الى حد ما •

٤ — أن يشير الى سهولة تعلم الفرد لاستجابات معينة •

والاستعداد بهذا المعنى مظهر من مظاهر شخصية الفرد ، اذا ما عرفنا الشخصية على أنها التنظيم الكلى للاستعدادات الديناميكية التى تميز فردا عن آخر • وهو أيضا خاصية سلوكية راهنة للفرد ، ولكنها تشير الى امكانيات الفرد مستقبلا(١) •

* * *

ثانيا — السلوك الفطرى والسلوك المكتسب :

اذا أردنا أن نميز بين الكائن الحى والجماد قلنا مثلا ان الأول يتحرك من تلقاء نفسه بينما يظل الثانى فى حالة سكون ، ما دام لم يخرجه من هذه الحالة محرك خارجى •• ولكنا اذا أنعمنا النظر فى سلوك الكائن الحى نرى أن هذا الفرق ليس بالفرق المطلق ، وأن ثمة عوامل خارجية تكون بمثابة ما يحرك الكائن الحى • ومن هذه العوامل التنبيهات الحسية كرائحة ما •• فهنا نرى أن المنبه « المثير » الحسى — وهو نوع من المحرك — يؤدى حينا الى الاستجابة ولا يؤدى اليها حينا

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** (القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦) ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ •

آخر • وتكون الاستجابة ايجابية أو سلبية ، فهى اقدام أو احجام أو سكون •• هذا هو الفرق الأول بين تأثير المحرك فى الجماد وتأثيره فى الكائن الحى • وتؤدى بنا هذه المشاهدة الى استخلاص القانون الآتى :

« فى حالة بقاء الشروط الخارجية ثابتة ، يحدث المحرك نفس الحركة دائمـا فى الجمـاد ولا يحدثهـا دائما فى الكائن الحى » •• ولتوضيح هذا الفرق نطلق على المحرك عندما يؤثر فى الكائن الحى اسم « المنبه » (المثير) •

وهناك فرق آخر بين المحرك والمنبه ، اذ أن عـلم الفيزياء يقرر أن رد الفعل فى حالة المحرك يكون معادلا للفعل • أما فى الكائن الحى فالأمر على خـلاف ذلك ، لأننا اذا قمنا بقياس طاقة المنبه الفيزيائية وطاقة رد الفعل لرأينا تفاوتا عظيما بينهما • ومن هنا نستخلص القانون الثانى الذى يقول : لا يكون رد الفعل فى الكائن الحى معادلا للفعل • ولتوضيح هذا الفرق نطلق على رد الفعـل فى الكائن الحى اسـم « الاستجابة » •

لهذا يجب أن تحوى سلسلة تفسير السلوك الحلقات الآتية :

المنبه أو المثير « شرط خارجى » ــ الطاقة الحيوية والتوتر العضلى « شرط داخلى » ــ الاستجابة •

ويطلق اسم « الدافع » على كل ما يدفع الى النشاط ، حركيا كان أو ذهنيا • ومن هذه الدوافع ما هو « فطرى » ومنها ما هو « مكتسب » •• وعندما يكون فطريا ، فانه يمر بفترة من الكمون قبل أن تتاح له فرصة الاقتراب من بؤرة الشعور ــ ولا يكون حينئذ خاضعا للتصرف الارادى مباشرة ــ فيسمى فى هذه الحالة « حافزا » • فاذا صدر عن نشاط الدافع سلوك مقصور على الأعمال البيولوجية ، سمى الدافع « حاجة » كالجوع مثلا •• واذا شمل السلوك دائرة الأعمال الاجتماعية ، سمى الدافع « ميلا » ، وفى هذه الحالة تكون طبيعة الدافع عضوية ونفسية معا • ونذكر من أمثلة الميول : الميول الأنانية « حب الذات » والميول الغيرية « حب الغير » • والميل فطرى فى أصله ، فاذا تبلور فى الشعور وأصبح موضوعا للتصور الذهنى سمى « نزعـة » • ومعنى « النزعة » قريب من معنى « الرغبة » ، غير أن موضوع الرغبة أكثر تحديدا وايضاحا

من موضوع النزعة • واذا نمت النزعة وقويت واستقرت تحت تأثير التجارب والخبرات الانفعالية وما يتبعها من تأملات وتفكير تحولت الى « عاطفة » ••

يتبين من هذا أن أساس الفوارق التى ذكرناها بين هذه الكلمات أو المصطلحات النفسية هو مقدار ما يتصف به كل دافع من صفة الشعورية • وهناك فئة أخرى من الدوافع ، مصدرها خارجى لا داخلى ؛ كالأشياء التى من شأنها تنشيط الدافع الداخلى وارضائه ، أو بعض العوامل الاجتماعية التى توجه النشاط وتعدله كالثواب والعقاب مثلا ؛ وفى هذه الحالة يسمى الدافع « باعثا » •

ونستطيع أن نفهم الآن الاتجاه الأول الذى تتخذه الحياة النفسية فى رقيها ، وهو الاتجاه من اللاشعور الى الشعور • وينطبق هذا الاتجاه على رقى السلوك فى حياة الفرد البشرى • فكلما صعد الكائن الحى سلم الرقى أصبح فى قدرته أن يبأور الحوافز قبل حلول وقت تنفيذها ؛ وبالتالى أن يستعد لمواجهة الأحداث قبل وقوعها ، وأن يستخدم الرموز والعلامات التى يستطيع أن يكيف بها سلوكه وأن يضمن التوفيق والنجاح • وعلى ضوء هذا يمكن أن يعرف الشعور من الوجهة الوظيفية بأنه انتظار حدوث اختيار جديد بناء على التأثيرات الحسية أو الادراكية الراهنة •• ونعنى بهذا أن محك الرقى فى السلوك الانسانى هو قابلية الحوافز الفطرية للتغيير والتعديل والتكيف تحت تأثير عوامل التعليم ، أى مرونة الحوافز الفطرية وقابلية الكائن الحى للاستفادة من الخبرات والتجارب السابقة والمعلومات المكتسبة فى معالجة المواقف الجديدة بنجاح •

ولما كان تطور الحياة تطورا تدريجيا ، فمن العسير تحديد الحد الفاصل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب • وكل ما يمكن تقريره بصفة عامة أن السلوك الفطرى هو السلوك المشترك بين جميع أفراد النوع ؛ أما السلوك المكتسب فهو خاص بالفرد ولا يشمل حتما جميع أفراد النوع الواحد •

والحقيقة الواقعة هى أن التباين الذى يخيل الينا أنه موجود بين السلوك الفطرى والسلوك المكتسب ، ليس بالتباين المطلق ، لأن القوانين

التى تسيطر على نمو السلوك الفطرى هى بعينها التى تسيطر على تكوين السلوك المكتسب •• ومن أهم هذه القوانين : أن النمو يتجه من التعميم الى التخصيص ، ومن الانتشـــار الى التركيز ، ومن الابهـــام الى الوضوح ، ومن التفكك الى التكامل • ومن ناحية أخرى ، فانه من المحال انشـــاء عادة جديدة الا على أساس من الاستعدادات الفطرية • فاكتساب بعض المهارات المركبة كالانزلاق على الجليد مثـــلا ليس سوى تنظيم لحركات المشى(١) •

* * *

ثالثا ــ التفكير والادراك والتذكر :

يستعمل لفظ « التفكير » فى الحديث الجارى للدلالة على عمليـــات عقلية مختلفة ، تثيرها مواقف سلوكية متباينة • فللتفكير معنى واسع يطلق على كل ما يجول فى الذهن من خواطر وسوانح وصور وذكريات ، ومعنى ضيق ينطبق خاصة على العمليات العقلية من حكم وتجريد وتعميم وتمثيل واستدلال للوصول الى نتيجة ما •

ومن مراتب التفكير الأولى البسيطة أن تخطر الفكرة بطريقة تلقائية بحيث لا يشـــعر بها الانســـان • وقد يطلق التفكير على عملية التذكر •• وفى هذا اشارة الى أن التفكير لابد له من أن يعتمد على الذكريات وعلى المعلومات للوصول الى حل المشكلة • وقد يدوم التفكير طويلا ويتناول أمورا مجهولة ، محاولا أن يقرر درجة احتمال وقوعها أو عدم احتماله •

ومن أبرز صفات التفكير أن يكون فى بادىء الأمر حديثا بين المرء ونفسه ، وقد قال بعض القدماء : « انى أجد الانسان ونفسه كجارين متلاصقين ، يتلاقيان فيتحدثان ، ويجتمعان فيتمازجان • وهذا يدل على بينونة بين الانسان ونفسه » •• وفى هذا المعنى يقول عباس العقاد ما نصه : « وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل ــ هذا الرجل الواحد ــ مناقشة عنيفة طويلة ، كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه ، وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ، ويستميله

---

(١) يوسف مراد ، **مبادىء علم النفس العـــام** • الطبعـــة الثالثة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧) ، ص ٣٨ ــ ٤٤ •

الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه فى هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح » (سارة : ص ١٨ — ١٩) ..

غير أن التفكير لا يقتصر مجراه على هذا النوع الصريح من الحوار الداخلى ، أو من الحديث الصامت أو المسموع . فقد يتمثل فى الخارج ، ويبحث عن مسالكه ، عن طريق المعالجة اليدوية والمحاولات الحركية . وفى هذه الحالة يكون تفكيرا ضمنيا — قد تفصح عنه العبارة اللفظية أو لا تفصح — مندمجا فى السلوك الحركى عندما يعالج الشخص مشكلة ميكانيكية .

ويمكن تلخيص أهم الآراء المتعلقة بالتفكير فى النقاط الآتية(١) :

١ — التفكير هو ضرب من السلوك ، ومرحلة من سلوك متصل الحلقات كأنه حديث يدور بين الشخص ونفسه أو بين شخصين مختلفين . ويمتاز التفكير فى صميمه بكونه خفيا مضمرا ..

٢ — يلاحظ أن التفكير اما أن يسبق الحديث أو يصاحبه ، فهو كسائر ضروب السلوك المختلفة فى حاجة الى أداة تعبر عنه ، وهذه الأداة هى اللغة . غير أن اللغة لا تتبع التفكير كظله ، ولا تطابق الألفاظ المعانى دائما تمام المطابقة . فالتفكير أسرع من أن تلحق به الألفاظ وأغزر مادة من أن تفرغ كل دقائقه فى قوالب اللغة .

٣ — فى قدرة الشخص أن يوجه تفكيره وأن يحول مجراه ، كما أن فى قدرته — الى حد كبير — أن يخفيه أو أن يعبر عنه . وقد تتضارب الأفعال الارادية والأفعال الآلية فى مجال التفكير ومجال التعبير اللغوى ، اذ أن هناك خواطر تلقائية تقتحم مسرح الذهن وتحرك الآليات اللفظية ، فتفلت الكلمة أو ينطلق السؤال قبل أن يقوى المتكلم على تدبير الأمر . ومن الأدلة القاطعة على أن التعبير اللغوى يخضع لسلطان الارادة كما يخضع له التفكير مقدرة الانسان على الكذب . ولعل الدافع الأول على الكلام هو طلب الحاجة والاستغاثة والاخبار ، غير أن الحياة الاجتماعية التى لولاها لما كان للكلام وللتعبيرات اللغوية أن تنمو وتتشعب ، قد أدت — بتطورها وتعقد مظاهرها — الى خلق

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ — ٢٦٤ .

دوافع أخرى ، فيها من العبث والمراوغة والاغراء ما يطغى أحيانا على دوافع الجد والصراحة وحب الحقيقة • حتى أنه مما يميز الانسان عن الحيوان أنه وحده الذى فى امكانه أن يتعمد الكذب •

٤ — لا يثار التفكير الا لارضاء حاجة أو رغبة ، فهو وسيلة للوصول الى غرض معين • وقد قيل بحق ان الحاجة أم الاختراع ، ويمكن أن يقال كذلك ان الحاجة أم التفكير ، لأنه من أهم وسائل حل المشاكل وأسرعها ، كما أنه الوسيلة الوحيدة للاختراع والابداع •

٥ — وللتفكير من حيث هو عملية عقلية أدوات يستخدمها ، وهذه الأدوات هى ما يعرف بالمعانى وما يقابلها فى اللغة من ألفاظ أو صور لفظية • والمعانى وعباراتها اللفظية هى رموز تحل محل الأشياء المرموز اليها • ويستعاض بالمعانى والألفاظ أثناء التفكير عن الأشياء والمواقف الواقعية ، كما أنه يستعاض بالتفكير عن القيام الفعلى بمعالجة الأشياء والمواقف الخارجية ••

ومن أقوى الأمثلة دلالة على طبيعة التفكير من حيث هو سلوك يستخدم المعانى والرموز ، أمثلة حل المسائل الرياضية بواسطة الأرقام التى هى من بين الرموز أكثرها تجريدا وتعميما ••

٦ — وأخيرا يقتضى التفكير لكى يكون تأمليا صريحا ، أن يكون الفكر مميزا من محتوياته ومن موضوعات التفكير • أى أنه من الضرورى أن تتلاشى الصلة التى تربط بين الشخص وبين الأشياء الخارجية التى تدخل فى دائرة مقتنياته ، وأن يستعاض عن الأشياء برموزها • وبعبارة أخرى ، لابد من أن يكون موقف المفكر عندما يريد أن يرتفع الى مستوى العلم ، شبيها بموقف الزاهد الذى يدير بصره عن الماديات ليتأمل فى المعنويات والحقائق العقلية •

يطلق « الادراك » اصطلاحا فى علم النفس على تلك العملية العقلية التى تتم بها معرفتنا للعالم الخارجى عن طريق التنبيهات الحسية • كأن أدرك أن هذا الشىء الذى أمامى هو « كتاب » ، وأن لهذا الكتاب مميزات خاصة من لون وطول وعرض وسمك ، ومن وضع بالنسبة الى وبالنسبة الى المكتب والى ما يحيط به من أشياء • ولا يقتصر ادراكى لهذا الكتاب على هذه الخصائص الحسية ، بل يشمل أيضا معرفتى

استخدام هذا الشيء .. فانى أدرك أن هذه الأشكال السوداء ــ كلمات الكتاب ــ رموز تفيد معنى معينا ، وأن هذا المعنى يرتبط بمعانى أخرى تثار تلقائيا أو أعمد أنا الى استحضارها ، وقد تحملنى هذه المعانى الى القيام بسلوك معين .

وعلى ذلك يمكن تعريف الادراك بأنه « نوع من الاستجابة ، لا لأشكال من حيث هى مجرد أشكال حسية ، بل لرموز وأشياء . وترمى هذه الاستجابة الى القيام بضرب معين من السلوك » . ويتوقف نوع الاستجابة على الشروط الآتية :

١ ــ طبيعة المنبه الخارجى .
٢ ــ ما جهزت به من آلات حاسة .
٣ ــ حالتى الشعورية الراهنة .
٤ ــ معلوماتى وتجاربى السابقة(١) .

يستخدم الشخص فى تفكيره وفى سلوكه اليومى شتى المعلومات المكتسبة دون أن يفطن الى أنها مكتسبة أو يذكر ظروف اكتسابها . ويجب أن نميز فى بادىء الأمر بين درجات « التذكر » المختلفة .. فهناك ما يمكن تسميته « بالاسترجاع التلقائى » ، وهو خطور الذكريات فى الذهن بدون أن يكون هناك دائما مناسبات ظاهرة لخطورها . وقد لا يوفق الشخص فى الكشف عن بواعثها الا بعد تحليل طويل ، وربما لا يصل به هذا التحليل الى حكم يقينى قاطع . فوصف هذا النوع من التذكر بكونه تلقائيا هو اعتراف ضمنى بجهل ظروف الاسترجاع الخفية ، ويكون الاسترجاع التلقائى بمثابة عملية تداع وترابط . أما ما يقابل الاسترجاع التلقائى فهو ما يعرف « بالتذكر المتعمد » أو « بالاستدعاء » . وتبتدىء عملية الاستدعاء فى المجال الذهنى بالبحث عن الذكرى ، وقد يؤدى هذا البحث الى القيام بالبحث فى المجال الادراكى الخارجى لمساعدة البحث الذهنى وتأييد ما قد يبدو للشخص بأنه هو الشيء الذى يبحث عنه .

والاستدعاء هو استرجاع الذكريات مع ما يصاحبها من ظروف الزمان والمكان ، وبالاستدعاء تنتقل عملية التذكر من عالم المدركات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

الخارجية الى عـالم التصـورات الذهنية مع تحـديد محتويات هذه التصورات فى الزمن المـاضى ، لا فى الحاضر والا نكون بازاء عملية « ادراك » ، ولا فى المسـتقبل والا نكون بازاء عمليـة « تخيل » • والاستدعاء هو دائما نوع من الاستجابات تثيره تنبيهات مختلفة • ويمكن تقسـيم مؤثرات الاستدعاء الى أربعة أقسام هى :

١ ــ المؤثرات الناشئة عن الحياة الاجتماعية . كالأحاديث التى تدور فى قاعة الجلوس أو حول مائدة الطعام •

٢ ــ المؤثرات المـادية التى تحيط بنا •

٣ ــ العوامل العضوية والوجدانية •

٤ ــ سلوك الشخص نفسه(١) •

* * *

رابعا ــ الأنا الأعلى :

من وجهة نظر « مدرسة التحليـل النفسى » : تتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية : « الهو » **Id** و « والأنا » **Ego** « والأنا الأعلى » Super-Ego وبالرغم من أن كل جزء من هـذه الأجزاء للشخصية الكلية له وظائفه وخصـائصه ومكوناته وديناميانه ، فانها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا ، بحيث يتعذر فصل تأثير كل منها ووزن اسهامه النسبى فى سلوك الانسان • ان السـلوك ــ فى الغالب ــ هو محصلة تفاعل بين هذه النظم الثلاثة ، ونادرا ما يعمل أحد هذه النظم بمفرده دون النظامين الآخرين •

« الهو » : هو النظام الأصلى للشخصية ، ويتكون من كل ما هو موروث وموجود سيكولوجيا منذ الولادة • فهو مستودع الطاقة النفسية ، كما أنه يزود العمليـات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقاتها • و « الهو » وثيق الصلة بالعمليـات الجسمية التى يستمد منهـا طاقاته ، ويطلق عليه اسم « الواقع النفسى الحقيقى » لأنه يمثل الخبرة الذاتية للعـالم الداخلى ولا تتوفر له أية معرفة بالواقع الموضوعى •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ــ ٢٢٣ .

ان « الهو » لا قبل له بتحمل تزايد الطاقة التى يعانيها بوصفها حالات من التوتر غير المريح • ونتيجة لذلك ، فانه عندما يتزايد مستوى التوتر لدى الكائن الحى — سواء أكان ذلك راجعا الى تنبيه خارجى أم الى مثيرات داخلية — فان « الهو » يعمل بطريقة من شأنها تفريغ التوتر مباشرة وعودة الكائن الحى الى مستوى ثابت منخفض ومريح من الطاقة • ويسمى مبدأ خفض التوتر الذى يعمل « الهو » وفقه « مبدأ اللذة » •

« الأنا » : يخرج « الأنا » الى الوجود لان حاجات الكائن البشرى تتطلب تعاملات مناسبة ازاء عالم الواقع الموضوعى • فالشخص الجائع عليه أن يبحث عن الطعام وأن يحصل عليه وأن يأكله ، حتى يستطيع التخلص من التوتر الناتج عن الجوع • ويعنى هذا أن عليه أن يتعلم كيف يفرق بين صورة عن الطعام مصدرها الذاكرة وبين ادراك فعلى للطعام كما يوجد فى العالم الخارجى • وما أن يتم هذا التمييز الحاسم حتى يصبح لزاما عليه أن يحول الصورة — الذهنية — الى ادراك ، يتم بتعيين مكان الطعام فى البيئة •

ان الفرق الأساسى بين « الهو » و « الأنا » أن الأول — الهو — لا يعرف الا الواقع الذاتى للعقل فحسب ، فى حين يفرق الأخير — الأنا — بين الأشياء التى توجد فى العقل والأشياء التى توجد فى العالم الخارجى • وعلى الرغم من ذلك يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أن « الأنا » هو ذلك الجزء المنظم من « الهو » ، وأنه يخرج الى الوجود ليحقق أهداف « الهو » ولا يحبطها ، وأن كل قوته مستمدة من « الهو » • و « الأنا » ليس له وجود منفصل عن « الهو » ، كما أنه لا يحقق على الاطلاق الاستقلال التام عن « الهو » • ان دوره الأساسى هو التوسط بين المطالب الغريزية للكائن الحى وظروف البيئة المحيطة به • ان أهدافه الأساسية هى المحافظة على حياة الفرد ، والعمل على تكاثر النوع •

« الأنا الأعلى » : هو الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ومثله كما يفسرها للطفل والداه ، كما تفرض عليه من خلال نظام الثواب والعقاب • ان « الأنا الأعلى » هو الدرع الأخلاقى للشخصية ، وهو يتعلق بكل ما هو مثالى وليس ما هو واقعى • وهو ينزع الى الكمال

بدلا من اللذة ، حيث ان شاغله الأول هو أن يقرر ما اذا كان شيء ما صائبا أو خاطئا حتى يستطيع التصرف بناء على القيم الأخلاقية التى يفرضها المجتمع من خلال الذين يمثلونه •

ان الوظائف الأساسية « للأنا الأعلى » هى :

١ ــ كف دفعات « الهو » ، وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنسى أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد الادانة أو الرفض •

٢ ــ اقناع « الأنا » باحلال الأهداف الأخلاقية محل الأهداف الواقعية •

٣ ــ العمــل على بلوغ الكمال •• أى أن « الأنا الأعلى » يميل الى معارضة « الهو » و « الأنا » معا ، والى تشكيل العالم على صورته • ولكنه يشبه « الهو » فى أنه غير منطقى ، ويشبه « الأنا » فى محاولته ممارسة التحكم فى الغرائز • ويختلف « الأنا الأعلى » عن « الأنا » فى أنه لا يحاول ارجاء الاشباع الغريزى فحسب ، بل انه يحاول أن يحول دونه على الدوام •

وفى ختام هذه المناقشة للنظم الثلاثة للشخصية ، ينبغى أن نوضح أن « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » هى مجرد أسماء لعمليات سيكولوجية مختلفة تعمل وفق نظم مختلفة فى مبادئها • وفى الظروف العادية لا تتعارض أو تصطدم هذه المبادىء بعضها بالبعض الآخر ، بل تعمل متآزرة كفريق تحت القيادية الادارية «للأنا » فالشخصية تعمل فى الظروف السوية بوصفها كلا متكاملا •• وبصورة عامة يمكننا النظر الى « الهو » بوصفه المكون البيولوجى ــ الحيوى ــ للشخصية ، و « الأنا » بوصفه المكون النفسى ، و « الأنا الأعلى » بوصفه المكون الاجتماعى(١) •

* * *

(١) فرج أحمد فرج ، قدرى محمود حفنى ، لطفى محمد فطيم (ترجمة) ، **نظريات الشخصية** • (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١) ، ص ٥٣ ــ ٥٧ •

خامسا ــ التوجيه والاختيار :

يستهدف التوجيه بصفة عامة مساعدة الشخص على تفهم حقيقة امكانياته بالطريقة التى تمكنه من بذل طاقاته واستغلال مواهبه فى الناحية التى تعود عليه ــ وبالتالى على المجتمع بالفائدة والمنفعة الكاملة • كما يقصد بالتوجيه معاونة الشخص على التوافق مع البيئة التى يعيش بها ، والاعتماد على نفسه فى الوصول الى قرارات حاسمة تتعلق بشئونه الخاصة لحل مشاكله •

ويختلف الأفراد من حيث قبولهم لمبدأ المساعدة •• فالبعض يعتمد على نفسه كل الاعتماد فى حل مشاكله ، ولا يتطلب الأمر سوى امداده ببعض المعلومات التى تعينه على حل المشكلة ، بينما نجد البعض الآخر لا يثق بنفسه فى حل مشاكله ولذا فهو يميل دائما الى أن يلقى العبء عن كاهله فيسلم زمامه الى شخص آخر ليدبر أموره • ويرجع هذا الاتجاه عادة الى مرحلة الطفولة بالنسبة للشخص ونوع التربية التى نشأ عليها فى تلك الفترة ، وما اذا كان قد نشأ منذ طفولته مستقل الرأى يتحمل المسئولية أم يعتمد على الغير ولا يتحمل المسئولية •

وليس المقصود بالتوجيه التسلط على تفكير الشخص ، أو املاء ارادتنا عليه ، أو ارغامه على قبول رأى معين ، أو التفكير نيابة عنه فيما يجب أن يفكر فيه هو بنفسه ، أو حمل العبء على كاهله •• بل المقصود بالتوجيه هو المساعدة والارشاد ، مساعدة الشخص على أن يصل بنفسه الى قرارات حاسمة ليدبر شئونه ويكون وجهة نظره ، ويختار الحل المناسب لمشكلته وظروفه ــ دون الزام من الآخرين ــ ويسير فى الطريق السليم الذى يؤدى الى حل مشكلته •• فمن حق الشخص أن يلجأ الى الآخرين للمساعدة ، ولكنه فى النهاية يقع عليه وحده عبء اتخاذ القرار واختيار الطريق الذى يسلكه ، دون أن يشاركه أحد فى ذلك •

* * *

سادسا ــ الثواب والعقاب :

من واجب كل مسئول يعمل فى مجال التعليم أو التدريب سواء فى المدرسة أو المنزل أو الأعمال العامة أو الصناعة ، أن يقرر نوع

الوسائل التى تثير دافعيـــة الأفراد وتحفزهم على النجاح .. وقد يعتمد هذا النجاح الى حد كبير على المهارة فى اســـتخدام « الثواب والعقاب » لتشجيع عمليـــة التعـــلم وتوجيهها الوجهة الصحيحة .

وعند اختيار الأهـــداف التعليمية للفرد ، قد يســـهل اختيار تلك الأهداف الداخلية الأصيلة فى ارتباطهـــا بالهدف أفضل من تلك ذات الارتباط الخارجى بالهدف . مثال ذلك : الطفل الذى يقوم بتجميع وتركيب جهاز لاسلكى صغير للاتصـــال بصديقه يحصل على الاشباع والرضا المتلازم مع الواجب الذى يقوم بتنفيذه عندما يستكمل تركيب الجهـــاز ويستخدمه . وتكون العلاقة بين الانجاز والهدف خارجية اذا كانت فرضية أو مصطنعة أو غير مباشرة . فمثلا نجد فى حالة الأب الذى يعد ابنه بشراء دراجة له اذا حصل على تقدير عال فى الامتحان النهائى ، أن الحصول على الدراجة هو حافز خارجى يرتبط بالحصول على التقدير العـــالى فى الدرجات ، حيث لا توجد علاقة طبيعية أو أصيلة بين الحصول على التقدير والحصول على الدراجة . والحوافز التى تعود نتائجها مباشرة على الفرد هى التى تساعد على تحقيق الهدف ، أكثر من تلك التى لا ترتبط به مباشرة .

والحوافز دائما ايجابية وسلبية ، أى لابد أن يترادف « الثواب » مع « العقاب » للسيطرة على الموقف التعليمى . ونجد أن كل مجتمع يضع القوانين والتشريعات مع تحديد « عقوبات » توقع على كل مخالف للقانون ، لضمان السيطرة والنظام .

وقد أثبتت التجارب السيكولوجية فى مجال الثواب والعقاب الى حقيقتين هامتين : الأول أن « العقاب » غالبا ما يكون أقل فعاليـــة من « الثواب » ، حيث انه يقمع الاستجابة مؤقتا ولكنه لا يضعفهـــا . والثانى أنه عندمـــا يكون « العقاب » فعالا فانه يحقق هدفه من خلال ارغام الفرد على أن يختار استجابة بديلة قد تؤدى الى اثابتها فيما بعد .

وبالاضافة الى التأثير القسرى للعقاب ، فانه قد يسيطر على السلوك ويوجهه وجهة خاطئة للأسباب الآتية :

١ ــ لا يمكن التنبؤ بنتائج « العقاب » ، على الرغم من أنها قد تتضمن تعديل السلوك ، على عكس الحال فى موقف « الثواب » . بل ان الاستمرار فى العقاب قد يؤدى الى حدوث استجابة غير مرغوب فيها .

٢ — ان توقيع العقاب تحت ظروف معينة يؤدى الى تثبيت السلوك، وتدعيمه بدلا من تغييره أو تعديله أو ازالته ، نتيجة للخوف والقلق الناشىء عن العقاب •

٣ — ان نتائج العقاب غالبا ما تكون غير سارة • فغالبا ما يؤدى العقاب الى الشعور بالكراهية نحو الشخص المتسبب فيه — سواء أكان أبا أو معلما أو رئيسا — والى كراهية الموقف أو الظروف التى حدث فيها العقاب •

وعلى الرغم من هذه التحذيرات الخاصة بالعقاب ، فان هذا لا يعنى عدم فائدته فى التعليم والتربية • فقد يكون العقاب مفيدا لعدة أسباب :

١ — يؤدى العقاب الى التخلص من الاستجابة غير المرغوب فيها ، طالما كانت هناك استجابات أخرى أفضل لا تعرض الشخص للعقاب بل ويمكن الاثابة عنها •

٢ — يكون العقاب فعالا عندما تكون رغبتنا هى أن يستجيب الكائن الحى لاشارة أو موقف بحيث نتجنب العقاب •• فمثلا ، يتعلم الناس أن يلجأوا الى الداخل عند سماع صوت الرعد ، أو البحث عن الأماكن الظليلة عندما يكون الجو حارا • فتجنب التهديد بالعقاب يمكن أن يؤدى الى الثواب •

٣ — يؤدى العقاب الى الحصول على المعلومات •• فالطفل الذى يعبث بالتركيبات الكهربائية ويتلقى صدمة عابرة منها قد يتعلم مواطن الخطر فى التوصيلات الكهربائية ويتجنبها • فالعقاب الذى يؤدى للحصول على المعلومات قد يعيد تشكيل السلوك بحيث يمكن اثابة السلوك الجديد(١) ••

* * *

سابعا — الانسان المحقق لذاته والانسان المركب :

قدم « مازلو » نظرية فى الدافعية الانسانية تفترض أن الحاجات الأساسية للانسان تنتظم فى تدرج هرمى حسب قوة الحاجات وفاعليتها ،

---

(١) Ernest Hilgard, R'chard Atkinson, Rita Atkinson; Introduction to Psychology, «6th. ed.». (New York :Harcourt Brace, Jovanovich, 1975), pp. 260 — 263.

وحدد الحاجات الأساسية للانسان فى الآتى : الحاجات البيولوجية ، الحاجة الى الأمن ، الحاجة الى الانتماء والحب ، الحاجة الى الاعتراف والتقدير ، الحاجة الى الجمال ، الحاجة الى تحقيق الذات • وعندما تشبع الحاجات ذات القوة الكبرى أو الأولوية ، فان الحاجات الأخرى فى التدرج الهرمى تبرز وتلح فى طلب الاشباع ، وعندما تشبع نكون قد صعدنا خطوة أخرى على سلم الدوافع ، حتى نصل الى القمة وهى « الحاجة الى تحقيق الذات » •

وفى هذا الاطار قدم « مازلو » نظرية « الانسان المحقق لذاته » Self- Actualizing Man التى تفترض ما يأتى :

١ ــ دوافع الانسان مرتبة فى شكل هرمى ، وأنه كلما أشبعت الحاجات الواقعة نحو قاعدة الهرم نشطت الحاجات الأخرى الأعلى منها فى التصنيف الهرمى •

٢ ــ يسعى الانسان الى أن يكون ناضجا ومنتجا فى العمل وأنه قادر على ذلك ، ويتطلب هذا قدرا معينا من الاستقلال والمرونة فى التكيف للمواقف المختلفة ، كما يستلزم تنمية قدرات الفرد ومهاراته الى الحد الأقصى •

٣ ــ الانسان تحركه دوافعه ويستجيب لحاجات وضوابط نفسية ذاتية ، وقد تهدده البواعث والضغوط الخارجية وتقلل من قدرته على التكيف الناضج السليم فى المواقف المختلفة •

٤ ــ لا يوجد تناقض بين تحقيق الانسان لذاته وبين أدائه لعمله بكفاءة ، بل ان الانسان اذا ما تهيأت له الفرص فانه سيقوم من جانبه بمحاولة التوفيق بين أهدافه وأهداف العمل(١) •

ويقوم مفهوم « الانسان المركب » Camplex Man. على الافتراضات الآتية :

١ ــ أن الانسان كائن معقد التركيب ، توجه سلوكه دوافع متعددة تعتمل معا فى نفسه • وعلى الرغم من أن حاجاته مصنفة فى تنظيم

---

(١) A. Maslow: Motivation and Personality, (New York : Harper, 1954), pp. 80 — 106.

هرمى حسب أهميتها فى نظره ، الا أن هذا التنظيم معرض للتغير من وقت لآخر ومن موقف لآخر حسب ما يدركه الشخص فى الموقف من مثيرات وعلاقات •

٢ — أن الانسان قادر على تعلم دوافع جديدة من خلال خبرته فى مجال عمله ، لهذا يقوم نمط سلوكه على نتيجة التفاعل بين حاجات الانسان وخبرته ومدى اشباع العمل لحاجاته ورغباته •

٣ — يمكن للانسان أن يعمل بطريقة مثمرة ومنتجة على أساس تعدد دوافعه وحاجاته ، ويتوقف الاشباع الذى يحصل عليه من العمل على طبيعة العمل المطلوب انجازه وطبيعة دوافع الشخص نفسه وقدراته وخبراته وطبيعة من يعملون معه ، وتتفاعل هذه كلها لتخلق نمطا معينا للعمل والعلاقات بين العاملين •

٤ — قد تختلف دوافع الانسان فى المنشآت المختلفة أو حتى فى الأقسام المختلفة فى نفس المنشأة • فالفرد الذى لا يجد الاشباع فى التنظيم الرسمى قد يجد اشباعا لحاجاته الاجتماعية وحاجاته لتحقيق الذات فى التنظيمات غير الرسمية •

٥ — يمكن للانسان أن يستجيب لأنماط مختلفة ومتعددة من استراتيجيات الادارة ، وعلى ذلك فليس هناك استراتيجية ادارية واحدة يمكن تطبيقها مع كل الناس فى كل موقف(١) •

* * *

ثامنا — الفروق الفردية :

للأفراد فى أى مجموعة من الكائنات الحية نواحى تشابههم ونواحى اختلافهم ، وليس هناك فردان يتشابهان تمام الشبه فى جميع النواحى ، وهذا مبدأ أساسى من المبادىء البيولوجية •

ويرجع سبب هذا التباين الى عاملى الوراثة والبيئة وتأثيرهما على الفرد ، اذ يفرض عامل الوراثة صفات بيولوجية معينة ، بينما يؤثر عامل البيئة على سلوك الفرد وصفاته الاجتماعية • وهناك بعض الخواص

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** • (القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٨) ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣ •

الجسمية الفردية التى لا تتأثر بعامل البيئة •• فبصمات الأصابع لا تتغير ، ولا تتشابه فى فردين ، كما أن فصيلة الدم تستمر على حالها منذ ولادة الفرد ولا تتغير بمرور الزمن ، وينطبق نفس القول على نوع الجنس بالنسبة للفرد سواء أكان ذكرا أم أنثى ، الا فى الحالات النادرة التى يحدث فيها التحول الجنسى •

ومن ناحية البيئة فيمكن القول بأنه قلما نجد شخصين لهما نفس الظروف البيئية ونفس الخبرات ، وينطبق هذا القول على التوائم التى نشأت فى بيئة واحدة • فاننا نجد الأطفال فى الأسرة الواحدة مختلفين فى خبراتهم ، كما أن اتجاهات الآباء نحو الأبناء متباينة ، كما أن مركز الطفل فى أسرته وترتيبه بالنسبة لاخوته يؤثر على اتجاهات من حوله بالنسبة له • ونجد فى الثقافة الواحدة أن الأسر ذات المركز العالى أو المكانة الاجتماعية تتميز بطابع خاص تفرقها عن الأسر الأخرى الأدنى مرتبة ، هذا علاوة على تأثير العقيدة الدينية على الأسرة وتمييزها عن الأسر الأخرى التى تعتنق مذهبا أو عقيدة دينية مختلفة • وعلاوة على ذلك فان الأسرة تتأثر بالنظم التربوية والاجتماعية بالنسبة للخبرات التى تمر بها ، وينشأ عن ذلك وجود فروق بين الأفراد فى المجتمع الواحد بل وفى الأسرة الواحدة(١) •

* * *

الخلاصـــة

طالعتنا الآيات الكريمة التى عرضناها فى هذا الفصـــل وتفسيرها بما يوضح طبيعة النفس البشرية التى أبدع الخالق ــ سبحانه ــ فى خلقها وتكوينها ، وتزويدها بما تحتاج اليه من استعدادات الخير والشر ، والهدى والضـــلال ••

لقد نادت تلك الآيات الكريمة فى الانسان أكرم ما فيـــه ، وهو « انسانيته » التى تميزه عن سائر الأحياء ، وترفعه الى أكرم مكان ، وتشير الى خلقه وتسويته وتعديله • فجاء الانسان مخلوقا جميـــلا

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، **سيكولوجية المهن** ــ الطبعة الرابعـــة ــ (القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٧) ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .

التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم • وتبدو نواحى الجمال والسواء والاعتدال فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه الروحى سواء •

فجملة القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية » ، تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالـــة من حالاتهـــا • ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هى انسان واحد فى جميع هذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرهـــا •• وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما نسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر « اللاشعور والشعور » ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية « التفكير والادراك والتذكر والتخيل » ، الى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمـــال ، وان لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول ••

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة ••

فقوة الدوافع الفطرية « الغريزية » تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » •

(يوسف : ٥٣)

وقوة النفس الواعية تقابل النفس « الملهمة » :

« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها » (الشمس : ٧ — ١٠) •

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

« لا أقسم بيوم القيامة • ولا أقسم بالنفس اللوامة » •

(القيامة : ١ ، ٢)

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعـــلم بمواقع الأعذار :

« بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره » •

(القيامة : ١٤ ، ١٥)

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس « المطمئنة » :

« يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية » •
(الفجر : ٢٧ ، ٢٨)

وفى كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى •• فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهى خاصة « الكائن المكلف المسئول » :

« كل نفس بما كسبت رهينة » (المدثر : ٣٨) •

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » •
(الأنبياء : ٤٧)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » (آل عمران : ٣٠) •

« اذا السماء انفطرت • واذا الكواكب انتثرت • واذا البحار فجرت • واذا القبور بعثرت • علمت نفس ما قدمت وأخرت • يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فسواك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار : ١ — ٨) •

« واذا النفوس زوجت » (التكوير : ٧) •

وجملة ما قيل فى معنى **« النفوس زوجت »** أنها تقرن بمقوماتها وأعمالها أو تضم الى أشباهها وقرنائها •• فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة • فان الانسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح •

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الانسانية ، وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول •• فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم

وعلمه عند الله • وصور العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق الا بايمان والهام(١) ••

ويمكن القول بأنه مع الايمان بوجود الخالق ، فانه قد شاءت ارادته — سبحانه — أن يخلق من العناصر الأصلية للأرض شيئا تكون له حياة ، ويبلغ فى النهاية الى تطور فى المخ يسمح بايداعه الذكاء • ويمكن القول بأن الله تعالى قد شاء أن يمنح هذا الذكاء سيادة وسيطرة على جميع الكائنات الحية الأخرى ، وعلى كائنات أخرى كثيرة عاطلة عن الحياة •• وأيا ما تختر لنفسك من هذه الآراء ، فان من الواضح أن الانسان لم يوجد كانسان منذ بدأت الحياة ، ولكنه تطور فيما بعد الى ما هو عليه الآن • وعلى أى حال لم يظهر كانسان ، الا بعد أن عجزت كل أشكال الحياة للكائنات الأخرى عن ايجاد جهاز بالغ التعقيد كالعقل البشرى(٢) •

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ••

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ••

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ••

العقل روية وتدبير ••

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ••

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد ••

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ••

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الانسان فى القرآن** • (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩) ، ص ٣٨ — ٤٠

(٢) محمود صالح الفلكى (ترجمة) ، **العلم يدعوا للايمان** • الطبعة الخامسة . (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥) ، ص ١٠٧ — ١٠٨ •

المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء (١) ..

ويقول علماء الطب وأساتذة علم الأحياء عن جسم الانسان : انه يقوم بأعمال تثبت أنه خلق بحكمة ولحكمة ، وانه وجد بتقدير وتنفى عنه شبهة المصادفة فى خلقه . ودليلهم على ذلك التحور الذى تقوم به الأجهزة للافاة نقص وجد ، أو لتكملة ضعف طرأ على أحدها .. فقد دلت التجارب على أنه اذا استئصلت كلية من الجسم مثلا ترتب على ذلك تضخم الكلية الأخرى ، لامكان قيامها بعمل الكليتين ، دون أن يكون للانسان دخل فى ذلك .. واذا أصاب القلب مرض فى صمامه قلل من قدرته ، عمل على أن يزيد سمك جدرانه شيئا فشيئا ، لتقوى عضلاته ، على دفع الأذى .. ودلت التجارب على أن بالجسم أجزاء احتياطية ، يمكن الاستغناء عن جزء منها عند اصابتها بمرض . فقد يقطع من أمعاء الانسان متر من الأمتار السبعة والنصف الموجودة بجسمه دون أن يحس بفقده .. كذلك أمكن بتر أجزاء متعددة من مختلف أجهزة الجسم دون أن يؤثر على حياة الانسان .. فهل يتم ذلك عفوا وهل وجد كل ذلك مصادفة ؟ .. انها قدرة كائنة فى الانسان لا يد فيها له(٢) .

اذا كان العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . ولكن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كممارسة الطب والعلاج النفسى دون أن يكون هناك ارادة ، ولابد لمن يتصف بالارادة أن يكون موجودا ذاتيا . وعلى ذلك فان النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الانسان فى القرآن** . ص ٢٤ .

(٢) عبد الرزاق نوفل ، **الله والعلم الحديث** . (القاهرة : مكتبة صايغ ، بدون تاريخ) ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان(١) .

ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذى ينظرون به الى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم ، فانهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق . فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك الى ادراك وجود السبب الأول الذى هو الله :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٢٨) .

* * *

(١) الدمرداش عبد المجيد سرحان (ترجمة) ، **الله يتجلى فى عصر العلم** ، ط ٢ ـ (القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١) ، ص ٢٧ .